" إنه جهاز فريد ،" قال الضابط للزائر و شمل الجهاز ، الذي يعرفه جيداً ، بنظرة إعجاب جلي . بدا أن الزائر، كبادرة مجاملة لا أكثر، قد لبى دعوة القائد ، الذي طلب منه حضور إعدام جندي ، أدين بعدم طاعة رئيسه و إهانته . و بدا أن الاهتمام بالإعدام لم يكن كبيراً ، حتى في مستعمرة العقاب . فعلى الأقل هنا في هذا الوادي الصغير، العميق ، الرملي و المغلق من جميع الجهات بمنحدرات عالية ، لم يكن حاضراً ، عدا الضابط و الزائر، سوى المحكوم ، وهو إنسان بليد ، عريض الفم ، ذو وجه و شعر مهملين ، و جندي يمسك بالجنزير الثقيل ، الذي امتدت منه السلاسل الأصغر، التي تقيد المحكوم من قدميه و معصميه وعنقه والمتصلة فيما بينها بسلاسل أخرى . وقد بدا المحكوم مطيعاً مثل كلب ، لدرجة أنه كان ممكناً إطلاقه ليركض حراً على المنحدرات ، وتكفي صفرة من ثم لإعادته حين تبدأ عملية الإعدام .

لم يولِ الزائر أي اهتمام بالجهاز، و أخذ يمشي خلف المحكوم جيئة وذهاباً بلا مبالاة ، تكاد تكون بادية ، فيما الضابط منشغلا بالتحضيرات الأخيرة ، زاحفاً تارة اسفل الجهاز المركب عميقاً في التربة أو متسلقاً سلماً تارة أخرى ليتفحص الأجزاء العلوية . وهذه الأعمال كان يمكن في واقع الأمر تركها لأحد الفنيين ، إلا أن الضابط كان ينفذها باندفاع عالٍ ، إما لتعلقه بالجهاز على نحو خاص ، أو ربما لأسباب أخرى ، لايمكن الوثوق بشخص آخر لتنفيذها . " الآن صار كل شيء جاهزاً ! " صاح الضابط أخيراً ونزل عن السلم . كان في غاية الإرهاق و يتنفس بفم مفتوح عن آخره وقد دس منديلين نسائيين بين ياقة بزته الرسمية و رقبته . "هذه البزات ثقيلة جداً بالنسبة إلى المنطقة الاستوائية ، أليس كذلك ؟ " سأل الزائر بدل أن يستفسر عن الجهاز، حسبما توقع الضابط . " بالتأكيد " أجاب الضابط وغسل يديه المتسختين بالزيت و الشحم في سطل ماء جاهز لهذا الغرض و أردف:" لكنها تعني الوطن، ونحن لا نريد أن نفقد الوطن . – ولكن انظر إلى هذا الجهاز، " جفف يديه بمنشفة مشيراً في الوقت نفسه إلى الجهاز. " حتى الآن كان التدخل اليدوي ضرورياً ،

ولكن منذ الآن سيشتغل الجهاز لوحده ." هز الزائر رأسه موافقاً وتبع الضابط ، الذي كان يتوخى عدم وقوع أية طوارىء ، والذي قال من ثم : "قد تحدث أعطاب طبعاً ، لكني آمل ألا يقع أي منها اليوم ، وفي كل الأحوال على المرء أن يحسب حسابها ، إذ أن على الجهاز أن يشتغل مدة اثنتي عشرة ساعة دون توقف . ولكن حتى إذا وقع خلل ما ، فسيكون بسيطاً جداً و سيزال فوراً ."

" ألا تريد الجلوس ؟ " سال اخيراً و سحب كرسي خيزران من مجموعة و قدمه للزائر، الذي لم يستطع الرفض ، فجلس ، وكان ذلك على حافة حفرة ، رماها بنظرة سريعة . لم تكن عميقة جداً ، وعلى أحد أطرافها جُمع ترابها في كومة مثل سد ، وعلى الطرف المقابل انتصب الجهاز. " لست أدري ما إذا كان القائد قد شرح لك الجهاز." قال الضابط ، فأشار الزائر بيده إشارة غامضة ، كانت أفضل ما يرجوه الضابط ، إذ بات بوسعه الآن شرح الجهاز بنفسه ، فقال وقد اتكأ على ذراع التوصيل :" هذا الجهاز اخترعه قائدنا السابق . لقد عملت معه منذ أولى التجارب ، وشاركت في جميع العمليات أيضاً ، حتى اكتمال النجاح . لكن الفضل في الاختراع يستحقه وحده . هل سمعت بقائدنا السابق ؟ لا ؟ حسناً ، إني لاأبالغ كثيراً إذا قلت بأن مؤسسة مستعمرة العقاب هي من إنجازه . نحن ، أقصد أصدقاءه ، عرفنا عند موته أن مؤسسة المستعمرة قد اكتملت في ذاتها ، بحيث أن الذي سيخلفه ، ولو حمل في راسه الف خطة جديدة ، لن يستطيع تغيير شيء من القديم، و طوال سنوات على الأقل . لقد تحققت نبوءتنا ، وكان على القائد الجديد أن يدرك ذلك . من المؤسف أنك لم تعرف القائد السابق ! – ولكن ، " قاطع الضابط نفسه " أنا أثرثر، فيما جهازه ماثل أمامنا . إنه يتألف كما ترى ، من ثلاثة أجزاء ، وبمرور الزمن صيغت لكل جزء منها تسمية شعبية ، نوعاً ما . الجزء السفلي سُمي السرير، والعلوي سمي الرسّام ، وهذا الأوسط هنا ، الجزء الحوّام ، سمي المِسْلفة . " فسأل الزائر :" المسلفة ؟ " لم يكن ينصت بانتباه ، فالشمس كانت تبدي كل تأثيرها في الوادي ، العاري من اي ظل ، بحيث يصعب على المرء جمع أفكاره. وقد جعله هذا أكثر إعجاباً بالضابط ، الذي كان ببزته الرسمية المشدودة على جسمه و المثقلة بكتافيتين مزدانتين بالأهداب ، يشرح موضوعه بكل حماسة ، إضافة إلى شدّه بعض البراغي هنا وهناك بمفك في يده ، أثناء الكلام . وبدا الجندي في حالة مقاربة للزائر. كان قد شد جنزير المحكوم حول معصميه واستند بيد واحدة على بندقيته وترك رأسه يتدلى فوق رقبته ، غير مبالٍ بأي شيء . لم يستغرب الزائر ذلك ، فالضابط كان يتكلم بالفرنسية ، ومؤكد ان الجندي ، والمحكوم أيضاً لا يفهمان هذه اللغة . لكن مايلفت الانتباه حقاً هو أن المحكوم رغم ذلك كان يبذل جهداً لمتابعة شرح الضابط . فكان بإصرار ناعسٍ يوجه نظراته دائماً إلى حيث يشير الضابط . وعندما قوطع هذا بسؤال الزائر، التفت هو أيضاً مثل الضابط نحو الزائر .

" نعم ، المسلفة " أجاب الضابط " تسمية مناسبة ، فالإبر مرتبة هنا بطريقة المسلفة الزراعية ، كما أن الجهاز كله يشتغل مثل مسلفة زراعية ، لكنه ينحصر هنا في مكان واحد فقط و وفق اسلوب أكثر فنية، و هذا على فكرة ، ما ستفهمه بعد قليل . هنا على السرير يستلقي المحكوم – لأني أرغب في شرح الجهاز أولاً، ومن ثم ساشرف على تنفيذ العملية . بذلك ستتابعها بصورة أفضل . ثم هناك ترس في الرسام أسنانه تالفة جداً ، فيصدر زعيقاً عالياً عند دورانه ، بحيث لن نستطيع عندها أن نتواصل . للأسف يصعب هنا

الآن توفير قطع غيار .- - - إذن هذا هو السرير ، كما قلت ، وهو مغلف كله بطبقة من القطن الخاص . لاحقاً ستعرف الغرض من ذلك . على هذه الطبقة القطنية يستلقي المحكوم على بطنه ، عارياً طبعاً . هنا توجد أحزمة لتثبيت اليدين ، و هناك للقدمين ، وهنا لتثبيت رقبته . هنا عند راس السرير حيث يضع الرجل وجهه أولاً ، كما قلت ، توجد هذه الحشوة من اللبّاد ، والتي يمكن التحكم بها بكل سهولة ، بحيث تدخل مباشرة في فم الرجل . الغرض منها منعه من الصراخ و من عض لسانه . لابد للرجل طبعاً من قبول الحشوة اللبادية ، و إلا فإن رقبته ستنكسر من شد الحزام ." " هذا قطن ؟ " سأل الزائروانحنى إلى الأمام . " نعم ، بالتأكيد ،" قال الضابط مبتسماً " تحسسه بنفسك . " و أمسك يد الزائر وطاف بها على السرير . "إنه قطن معالج خصيصاً لهذا الغرض ، لهذا يبدو من الصعب التعرف عليه ، ساعود للحديث عن الغرض منه ." يبدو أن الزائر بدأ يشعر بميل ما نحو الجهاز، فوضع كفه فوق عينيه ليحجب الشمس عنهما و رفع نظره نحو أعلى الجهاز . كان هيكلاً معمارياً ضخماً . السريروالرسام يحتلان فيه مساحتين متساويتين وبديا مثل صندوقين داكنين ، ومسافة ارتفاع الرسام عن السرير تعادل مترين تقريباً . كانا متصلين واحدهما بالآخرعند الزوايا بأربعة مواسير نحاسية تكاد تشع تحت نور الشمس .وبين الصندوقين كانت المسلفة تحوّم على شريط فولاذي .

لم ينتبه الضابط إلى لامبالاة الزائر السابقة ، غير أنه أبدى اهتماماً ببداية إقباله ، و لهذا توقف عن متابعة شروحاته ، ليمنح الزائر وقتاً كافياً لمعاينةٍ متروية بلا إزعاج . أخذ المحكوم يقلد الزائر، ولكن بما أنه غير قادر على رفع يده لتغطية عينيه ، رمش بعينيه المجردتين نحو الأعلى .

" حسناً ، الرجل الآن مستلق ،" قال الزائر وسند ظهره على الكرسي و صالب ساقيه .

"نعم ،" أجاب الضابط و دفع قبعته غلى الوراء قليلاً و مسح بكف يده وجهه الملتهب و أردف:" اسمعني إذن ! لكلٍ من السرير و الرسام بطاريته الكهربائية الخاصة ، فالسرير يحتاجها لنفسه ، والرسام للمسلفة . ما أن تُشد الأحزمة على الرجل حتى يبدأ السرير بالحركة ، فيرجف رجفات سريعة جداً ، طولانياً و عرضانياً في الوقت نفسه . لابد أنك قد رأيت أجهزة مشابهة في مشافي المجانين ، غير أن جميع حركات سريرنا محسوبة بدقة بالغة ، إذ لابد من أن تتواقت مع حركات المسلفة تماماً . وهذه المسلفة هي المنَفِذ الفعلي للحكم ."

" ما هو منطوق الحكم ؟ " سأل الزائر. " حتى هذا لاتعرفه ؟ " قال الضابط مندهشاً وعض على شفته :" اعذرني إذا كانت شروحاتي ربما غير مرتبة ؛ أنا مدين لك ببالغ الاعتذار . فالتفاسير اعتاد القائد أن يقدمها ، سابقاً ؛ أما القائد الجديد فقد تملص من واجب الشرف هذا ؛ ولكن تجاه ضيف بمثل مقامك الرفيع ..." حاول الزائر أن ينفض عنه هذا التكريم بكلتي يديه ، لكن الضابط ألح على تعبير " تجاه ضيف بمثل مقامك ، أن لا يعلمك بحكمنا ، ولو من حيث الشكل ، هذا ثانيةً تجديدٌ يـ ..." كان ثمة شتيمة على شفتيه ، لكنه ضبط نفسه و اكتفى بالقول :" لم يعلمني أحد بالأمر . لست انا المذنب في هذا . إلا أني بالمناسبة مؤهل بأفضل صورة لتفسيرأنواع أحكامنا ، إذ معي هنا ، " و ربت بيده على جيب سترته الرسمية " التدوينات المعنية بالموضوع بيد القائد السابق ."

" تدوينات مخطوطة بيد القائد نفسه ؟ " سأل الزائر وأردف :" هل وحَّد كل شيء في ذاته ؟ أكان جندياً وقاضياً ومصمماً وكيميائياً ومدوناً ؟"

" بالطبع " قال الضابط مومئاً براسه مع نظرة شاخصة متأملة ، ثم نظر إلى يديه متفحصاً ، إذ بدتا له غير نظيفتين كفاية ليلمس بهما المخطوطات ؛ فتوجه إلى الدلو و غسلهما مرة أخرى . أخرج حافظة جلدية صغيرة و قال :" حكمنا لايبدو صارماً ، فالأمر الذي خالفه المحكوم مثلاً " و أشار إلى الرجل "سيُكتب على جسمه بالمِسْلَفة ، كهذا المحكوم مثلاً " واشار الضابط إلى الرجل "سيُكتَب على جسمه : احترم رئيسك ! "

التفت الزائرنحوالرجل بنظرة عابرة ، عندما أشار الضابط إليه ، فوجده حانياً رأسه وقد شحذ كل طاقته السمعية ، لعله يلتقط شيئاً . غير أن حركات شفتيه الغليظتين المطبقتين على بعضهما بيّنتا بوضوح انه لم يستطع فهم اي شيء . كان الزائر راغباً في طرح اسئلة مختلفة ، لكنه أمام مرأى الرجل المحكوم لم يسأل سوى :" هل يعرف حكمه ؟ " " لا " قال الضابط وأراد متابعة شروحاته فوراً ، لكن الزائر قاطعه : " لايعرف بماذا حُكم عليه ؟" " لا " قال الضابط ثانية ، وجمد للحظة وكأنما يطالب الزائر بتبريرلسؤاله ،ثم قال :" لافائدة في إعلامه به ، فسيعرفه على جسمه مباشرة ." أراد الزائر أن ينهي الحديث هناً ، عندما أحس بنظرة المحكوم موجهة نحوه ، وكأنما تسأله إن كان يوافق و يُقِر العملية الموصوفة . ولهذا انحنى الزائر، وكان قد سند ظهره ، إلى الأمام ثانية و أضاف سائلاً :" لكنه يعرف على الأقل أنه قد أدين ، هذا يعرفه بالتأكيد ؟" " أيضاً لا " قال الضابط مبتسماً في وجه الزائر، وكأنه يتوقع منه الآن بعض المداخلات العجيبة . " لا " قال الزائر ومسح جبينه بيده و أردف :" إذن ، الرجل لايعرف حتى الآن مفعول دفاعه ؟"

" لم تتح له الفرصة ليدافع عن نفسه ،" قال الضابط و نظر جانباً كأنه يخاطب نفسه ويريد للزائر من خلال ذلك ألاّ يُشعره بالخجل بشأن أمورهي الأكثر بداهة بالنسبة إليه . " لابد أن يكون قد حصل على فرصة للدفاع عن نفسه ،" قال الزائر ونهض من مقعده واقفاً .

أدرك الضابط أنه في خطرِأن يُعوّق لمدة طويلة عن الاستمرار في شرحه عن الجهاز ، لذلك توجه نحو الزائر وشبك ذراعه بذراعه ، أشار بيده إلى المحكوم ، الذي شَدّ وقفته لشعوره بان الانتباه مركز عليه بصورة خاصة ، - وسحب الجندي الجنزير – وقال :" الأمر يجري على النحو التالي . أنا تم تعييني قاضياً هنا في مستعمرة العقاب . رغم شبابي . لأني في جميع قضايا العقوبات كنت أقف إلى يمين القائد السابق و أعرف الجهاز أفضل من اي شخص آخر. المبدأ الذي أعتمده في قراراتي هو: <الذنب أمر لاشك فيه دائماً >. المحاكم الأخرى قد لا تتّبع هذا المبدأ لأنها متعددة القضاة ، ولوجود محاكم أعلى منها ايضاً . الحال هنا ليس كذلك ، أو أنه لم يكن كذلك في عهد القائد السابق . القائد الجديد أبدى رغبة في الواقع للتدخل في محكمتي ، لكني أفلحت حتى الآن في صده ، وسأفلح في المستقبل ايضاً . – أردتَ تفسيراً لهذه القضية ؛ إنها بسيطة مثل كل القضايا . صباح هذا اليوم قدّم أحد النقباء بلاغاً يفيد بأن هذا الرجل المفروز لخدمته وينام عند بابه، قد نام أثناء الخدمة . إذ إن واجبه يحتم عليه عند اكتمال كل ساعة أن ينهض و يؤدي التحية عند باب النقيب. إنه بالتأكيد ليس واجباً ثقيلاً ، إضافة إلى ضرورته ، إذ على الرجل أن يبقى يقظاً سواء أثناء الحراسة أو أثناء تنفيذ الخدمات . في الليلة الماضية أراد النقيب التأكد من قيام الخادم بواجبه ، ففتح الباب عندما ضربت الساعة الثانية، فوجده متكوراً على نفسه نائماً . فتناول سوط الركوب وضربه به على وجهه . وبدلاً من أن ينهض الخادم ليعتذر، أمسك بسيده من ساقيه وهزه قائلاً :< إرمِ السوط من يدك و إلا

سأفترسك > - هذه هي الواقعة . جاءني النقيب قبل ساعة ، فدونت أقواله و ختمتها مباشرة بكتابة الحكم ، ثم أمرت بتقييد الرجل بالأغلال . هذا كله كان في غاية البساطة . ولو أني استدعيت الرجل أولاً و استجوبته ، لما حصدتُ سوى الإرباك ؛ فقد كان سيكذب ، وإنْ نجحتُ في تفنيد أكاذيبه ، لاستبدلها بأخرى جديدة وهكذا دواليك . أما الآن فإني ممسك به ، ولن أفلته ، - هل اتضح الآن كل شيء ؟ ولكن الوقت يمضي ، والإعدام كان يجب ان يبدأ ، وأنا لم أنته بعد من شرح الجهاز لك ." أكرَهَ الضابط الزائرعلى الجلوس ثانية ، وعاود الاقتراب من الجهاز و بدأ :" المسلفة كما ترى تتطابق مع شكل جسم الإنسان، هذا الجزء لجذع المحكوم وهذان الجزآن لساقيه . ولم يخصص للرأس إلا هذا المخرز الصغير. هل اتضح لك الأمر ؟" و انحنى للزائر بودٍ ، مستعداً للشروحات الأكثر شمولية .

نظر الزائر إلى الجهاز مقطب الجبين . الأخبار التي وصلته عن طريقة المحاكمة لم ترضه . لكنه اضطر لأن يقول في نفسه ، الأمر هنا يتعلق بمستعمرة عقاب وبالتالي ثمة عقوبات خاصة ضرورية هنا ، بحيث يتوجب على الإنسان أن يسلك سلوكاً عسكرياً حتى النهاية . لكنه إضافة إلى ذلك عقد بعض الأمل على القائد الجديد ، الذي ينوي ، حسبما يبدو بجلاء ، تطبيق أسلوب جديد ،و لكن بتمهل ، لأن العقل المحدود لهذا الضابط لم يستطع استيعابه . و من مجرى أفكاره هذا خرج الزائر بالسؤال الآتي :" هل سيحضر القائد عملية الإعدام ؟ " " هذا ليس مؤكداً ،" قال الضابط وقد أحرجه هذا السؤال المفاجيء ، فتشوهت سحنته التي كانت ودودة و قال :" لهذا تحديداً علينا أن نسرع . حتى أني مع بالغ الأسف سأضطر لاختصار شروحاتي . ولكن بوسعي غداً ، بعد أن يتم تنظيف الجهاز - - كونه يتسخ بشدّة هي غلطته الوحيدة . - - تعويض التفصيلات . الآن سنكتفي بالضروري وحسب . - - بعد استلقاء الرجل على السرير و تشغيل السرير ليرجف ، تُنزَل المسلفة على الجسم . وهي تضبُط وضعيتها بنفسها ، بحيث تكاد رؤوس الإبر تلامس الجسم . ما أن تَثبُت هذه الوضعية حتى ينشدّ هذا الحبل المعدني ليصبح مثل قضيب الزان . وعندها تبدأ اللعبة . المشاهد غيرالمطلع لن يلاحظ ، ظاهرياً ، أي اختلاف في العقوبات . فالمسلفة تبدو وكأنها تعمل بالشكل نفسه دائماً، تخز الجسم برؤوس الإبر وهي ترتعش ، فيما يرتجف السرير تحته أيضاً . ولكي يتمكن أي فرد من فحص تنفيذ الحكم ، فقد صُنعت المسلفة من زجاج . تسبب ذلك ببعض الصعوبات التقنية في تثبيت الإبر، ولكن بعد محاولات عديدة نجحت العملية ، ونحن لم نبخل باي جهد طبعاً . والآن بوسع أي كان أن يرى من خلال الزجاج عملية الكتابة بالإبر في الجسم . ألا تريد أن تقترب أكثر لتلقي نظرة على الإبر؟" نهض الزائر بهدوء ومشى نحو الجهاز ثم انحنى فوق المسلفة . " أنت ترى" قال الضابط " نوعين من الإبر في ترتيبات مضاعفة . فكل إبرة طويلة توجد بجانبها إبرة قصيرة . الطويلة تقوم بالكتابة والقصيرة ترش ماء لغسل الدم وللحفاظ على الكتابة نظيفة دائماً . يُساق ماء الدم من هنا عبر ميازيب صغيرة ليصب كله في الختام عبر هذا الميزاب الرئيسي إلى الحفرة ." وأشار الضابط باصبعه متابعاً بدقة مجاري سيلان ماء الدم . وعندما - في محاولة منه للتوضيح ما أمكن - وضع يديه تحت أنبوب المصب مباشرة وكأنه يتلقى الدم براحتيه ، رفع الزائر راسه بغية الرجوع إلى مقعده ، متلمساً طريقه بيده . وعندها رأى، لرعبه ، أن المحكوم قد لبّى مثله دعوة الضابط لرؤية تركيب المسلفة من قرب . فقام بشد الجنزير قليلاً من الجندي النعسان ثم انحنى أيضاً فوق الزجاج . كان بادياً عليه بحثه بعينين متشككتين عن ذلك الشيء ، الذي كان السيدان يتأملانه باهتمام. لكنه لم ينجح في ذلك لعدم فهمه الشرح ، فانحنى هنا و هناك مكرراً تفحصه الزجاج . أراد الزائرأن يعيده إلى مكانه ، فلربما كان ما يفعله يستحق عقوبة ما . لكن الضابط بقي ممسكاً بالزائر بيد وتناول بالأخرى حفنة تراب من الكومة بجانب الحفرة ورماها نحو الجندي،الذي فتح عينيه على اتساعهما ، فراى ما تجرأ عليه المحكوم . ترك بندقيته تسقط ارضاً ثم ثبت

قدميه بكعبيه في الأرض وشد المحكوم إلى الوراء فسقط هذا فوراً . راقبه من علٍ وهو يصارع السلاسل التي تُصِلّ. " أنهضه ! " صاح به الضابط ، إذ لاحظ أن اهتمام الزائر قد تركز على المحكوم . حتى أن الزائرقد التفت عن المسلفة غير آبه لها ، راغباً فقط في معرفة ما سيحدث للمحكوم . " عامله بعناية ! " صاح الضابط ثانية ، و دار حول الجهاز و أمسك بالمحكوم من تحت إبطيه و أنهضه بمساعدة الجندي ، لأن قدميّ المحكوم زلقتا عدة مرات .

" الآن بت أعرف كل شيء ،" قال الزائر عندما عاد الضابط إليه . " بقي الأهم " علّق الضابط وأمسك بذراع الزائر وأشار نحو الأعلى:" هناك في الرسام يوجد المحرك الآلي ، الذي يضبط حركة المسلفة و يحددها ، وهو يعمل وفق الرسم الذي ينص عليه الحكم . أنا مازلت أستخدم رسومات القائد السابق . هاهي،" و استل بعض الأوراق من حافظة جلدية ،" ولكن للأسف لايسعني ان أضعها بين يديك ، فهي أغلى ما أملك . سأريك إياها من هذه المسافة ، و ستتمكن من رؤية كل شيء بوضوح ." أراه الورقة الأولى . كان بود الزائر أن يقول شيئاً ، استحساناً ، لكنه لم يرَ سوى ما يشبه متاهة تتداخل فيها خطوط كثيرة و تتصالب و تملأ الصفحة بكثافة ، بحيث لا يستطيع الناظر تمييز المساحات البيضاء بينها إلا بصعوبة بالغة. " إقرأ ،" قال الضابط . " لاأستطيع " أجاب الزائر . " لكنه واضح " قال الضابط ." إنه فني جداً " قال الزائر متهرباً " لكني لا استطيع فكه ." " طيب " قال الضابط ضاحكاً وأعاد الورقة إلى الحافظة . " إنه ليس تخطيطاً جميلاً لأطفال المدارس . على المرء أن يطيل التحديق ليقرأ . ومؤكد أنك أنت أيضاً ستقرؤه في النهاية . وطبعاً لايجوز أن يكون تخطيطاً مبسّطاً ، إذ لا يُفترض به أن يؤدي إلى الموت سريعاً ، وإنما وسطياً خلال اثنتي عشرة ساعة ، ونقطة العودة محددة عند الساعة السادسة . ولابد من إحاطة الخط الرئيسي بكثير و كثيرمن التزيينات . . أصار بإمكانك الآن تقدير عمل المسلفة و الجهاز ككل ؟ - - ولكن انظر ! " وقفز إلى السلم ، أدار عجلة و صاح نحو الأسفل :" انتباه ، ابتعد جانباً !" ، وأخذ كل شيء يشتغل. لولا زعيق الترس لكان الأمر رائعاً . وكأن الترس المزعج قد فاجأ الضابط ، فأخذ يهدده بقبضته ، ثم فرد ذراعيه للزائر معتذراً ، ونزل عن السلم مسرعاً ليراقب من تحت سير عمل الجهاز . ثمة ما ليس على ما يرام ، ولا يلاحظه إلا هو وحسب . تسلق السلم ثانية ، مد كلتي يديه داخل الرسام ، و انزلق من ثم على إحدى المواسير النحاسية ليهبط بسرعة أكبر، بدلاً من استخدام السلم ، وصاح باعلى صوته وبتوتر واضح في أذن الزائر ، كي يُفهِمه مايقول :" هل استوعبت العملية ؟ المسلفة بدأت تكتب ، وما أن تنهي وحدة الخط الأولى عل ظهر الرجل ، تلُفُ الطبقة القطنية و تقلب الجسم ببطء على جنبه ، لتقدم للمسلفة مساحة جديدة .

في أثناء ذلك تهدأ على القطن المساحات التي جرّحتها الكتابة . ونتيجة المعالجة الخاصة للقطن فإنه يوقف النزف فوراً ويجهز الجروح لكتابة أعمق . هذه الأسنان على طرف المسلفة تقوم مع متابعة قلب الجسم بانتزاع قطع القطن من الجروح و ترميها في الحفرة ، وهكذا تعاود المسلفة عملها ، بأن تزيد الكتابة عمقاً طوال اثنتي عشرة ساعة . في أثناء الساعات الست الأولى يبقى المحكوم حياً كالسابق تقريباً ، لكنه يتألم وحسب . بعد البداية بساعتين تُسحب حشوة اللبّاد ، إذ لايعود الرجل قادراً على الصراخ . هنا عند حافة الرأس ، في هذا الطاس المسخن كهربائياً يوضع رز مهروس ، يمكن للرجل أن ياكل منه إذا رغب في ذلك ، بلسانه طبعاً . لم يسبق لمحكوم أن فوّت على نفسه هذه الفرصة . لاأعرف أحداً ، وخبرتي هنا واسعة . مع حلول الساعة السادسة يفقد الرجل متعة الأكل . أنا أقرفص هنا عادة لأراقب هذه الظاهرة . نادراً ما يبلع الرجل اللقمة الأخيرة ، بل يلوكها في فمه ثم يبصقها في الحفرة . وعندها لابد لي من أن أنحني ، وإلا فإنها

ستصيبني في وجهي . . كم يصبح الرجل هادئاً مع حلول الساعة السادسة ! حتى أشدهم غباء يتفتح عقله ، يبدأ الأمر في العينين ، وينتشر منهما . نظرته قد تغويك بالاستلقاء في مكانه تحت المسلفة . ليس ثمة ما يحدث سوى أن الرجل يبدأ يفك شيفرة الخط ، فيُدبب شفتيه وكأنه يرهف السمع . أنت رايت أنه لايسهل بالعينين وحسب قراءة الخط ، أما المحكوم فإنه يقرؤه بالجروح . لكنه عمل شاق ويحتاج إلى ست ساعات لاستكمال القراءة . ولكن عندها تخزه المسلفة في كامل جذعه دفعة واحدة وترميه في الحفرة ، حيث يصطدم بالماء المدمّى وقطع القطن . عندها تنتهي المحاكمة ، ونحن ، أنا والجندي نهيل عليه التراب ."

أمال الزائر أذنه نحو الضابط ، واضعاً يديه في جيبي سترته ، وأخذ يراقب عمل الجهاز. والمحكوم أيضاً أخذ يراقبه ، ولكن دون فهم . انحنى قليلاً وتابع الإبر المحوّمة ، عندما قام الجندي استجابة لأمر من الضابط ، بقص قميص المحكوم و بنطاله من الخلف بسكين ماضية ، بحيث سقطا على الأرض ، أراد مدّ يديه إلى ثيابه ليستر عريه ، لكن الجندي رفعه عالياً ونضى عنه ماتبقى عليه من مزق . أوقف الضابط الآلة ، وفي أثناء السكون الذي حل الآن مُدّد المحكوم تحت المسلفة . فُكت السلاسل وثُبّتت بدلاً عنها الأحزمة . بالنسبة للمحكوم بدا الأمر للوهلة الأولى مريحاً ، لكن المسلفة هبطت الآن لمسافة قصيرة . كان المحكوم بادي النحول ، وعندما لامسته رؤوس الإبر اقشعر جلده كله . وبينما كان الجندي مشغولاً بيد المحكوم اليمنى مدّ هو اليسرى ، لا يدري إلى أين ، إلا أنه كان الاتجاه حيث يقف الزائر . أخذ الضابط بلا انقطاع يلقي نظرات جانبية نحو الزائر ، كمن يحاول أن يقرأ من وجهه الانطباع الذي خلفته فيه عملية الإعدام حسبما شرحها له ، وإن كان شرحاً مختصراً .

تمزق الحزام المخصص لمعصم اليد ، ربما لأن الجندي قد شده بقوة . توجب على الضابط تقديم المساعدة ، إذْ أراه الجندي الحزام الممزق ، فذهب الضابط إليه على الجانب الآخر من الجهاز ثم قال ووجهه ملتفت نحو الزائر:" الجهاز مركب من عدد كبيرجداً من القطع ، فلا بد من أن ينكسر أو يتمزق شيء فيه هنا أو هناك ، ولكن لايجوز لهذا الأمر أن يؤثر بصورة سلبية على تقييمه العام .بالنسبة للحزام سأوفر بديلاً عنه فوراً ، سأستخدم سلسلة ، مع أن هذا سيؤثر على نعومة حركة الساعد الأيمن ." وفيما هو يطوق معصم المحكوم بالسلسلة أضاف :" لقد باتت وسائل صيانة الجهاز الآن محدودة جداً . في عهد الحاكم السابق خُصصت لهذا الغرض وحده ميزانية مستقلة ، وتُركت لي حرية التصرف بها . هنا كان يوجد مستودع تتوفر فيه كل إمكانيات قطع الغيار . أعترف بأني شارفت على التبذير، أقصد سابقاً وليس الآن طبعاً ، حسبما يزعم القائد الجديد، الذي يستخدم كل شيء حجة لمكافحة المؤسسات القديمة . الآن باتت ميزانية الجهاز بإدارته هو ، وإذا أرسلت له طالباً حزاماً جديداً ، فإنه يطلب الممزق مبرراً للطلب . والحزام الجديد يصل بعد عشرة أيام ، ويكون من نوعية رديئة لاتصلح إلا لمدة قصيرة . أما كيف سأستخدم الجهاز حتى ذلك الحين ، فليس هناك من يبالي ."

فكر الزائر: إنه لمن المريب دائماً ان يتدخل المرء في شؤون الغير . إنه ليس مواطناً في مستعمرة العقاب ولا في الدولة التي تتبع لها المستعمرة . فإذا أدان تنفيذ الإعدام بل حاول إحباطه ، بوسع المرء أن يجيبه : اسكت، أنت أجنبي . عندها ما كان ليجيب بشيء ، بل يمكنه أن يضيف فقط ، بانه في مثل هذه الحالة ماعاد يفهم نفسه ، لأنه يسافر في الواقع بغرض المشاهدة ليس إلا ، وحتماً لا ليغيّرآراء الآخرين في المحاكمات . لكن الأوضاع هنا مغوية جداً ، إذ لا جدال في لاقانونية الإجراآت ولا في لاإنسانية الإعدام . ولا يمكن لأحد أن يفترض بالزائر منفعة شخصية ، فالمحكوم غريب عنه ، لا إبن بلده ولا إنساناً يستحق الشفقة . والزائر

يحمل توصيات من جهات عليا ، وقد استُقبل هنا بحفاوة كبيرة ، وكونه قد دعي لحضور هذا الإعدام يشير ايضاً إلى أن رأيه في هذه القضية مطلوب . كان هذا أكثر احتمالية ولاسيما أن القائد الحالي، حسبما سمع الآن بوضوح بالغ ، ليس من أنصار هذه الإجراآت ، وسلوكه تجاه الضابط كان إلى حد ما عدوانياً .

وعندها سمع الزائر صيحة غضب من الضابط . كان لتوه وبعد جهد جهيد ، قد تمكن من دفع الحشوة اللبادية في فم المحكوم ، الذي تعرض بسببها لمحفز إقياء لا يقاوم ، فأغمض عينيه و تقيأ . رفعه الضابط بسرعة ، بعيداً عن الحشوة واراد أن يدير رأسه نحو الحفرة ، ولكن الوقت كان قد فات ، وسال القيء على الجهاز. " هذا كله بسبب القائد ! " صاح الضابط وأخذ فاقداً صوابه يرج المواسير النحاسية صائحاً :" جهازي يُدنُس مثل أصطبل ." وأشار للزائر بيدين مرتجفتين إلى ما حدث :" ألم أحاول إفهام القائد طوال ساعات ، أنه لا يجوز تقديم طعام للمحكوم قبل يوم من تنفيذ الإعدام . لكن للتوجه اللين الجديد رأياً آخر . نساء القائد يحشين بطن الرجل بالحلويات قبل أن يساق إلى التنفيذ . لقد أمضى كل عمره وهو لايأكل إلا سمكاً زنخاً ، والآن صار لابد من أن يأكل حلوى ! لكن هذا ممكن ، لا اعتراض لي عليه ، ولكن لماذا لا يوفرون لي قطعة لباد جديدة ؟ مضت ثلاثة شهور على طلبي إياها . كيف يمكن للإنسان دون قرف أن يضع هذه الحشوة في فمه ، وقد مصها و عضها أكثر من مئة رجل في النزع الأخير ؟ "

أرخى المحكوم راسه وبدا مستكيناً ، فيما انشغل الجندي بتنظيف الجهاز بقميص المحكوم . توجه الضابط نحو الزائر، الذي لحدسٍ ما رجع خطوة إلى الوراء ، لكن الضابط أمسك بيده و جذبه جانباً قائلاً :" أريد أن اسر إليك بكلام ثقة ، أتسمح لي بذلك ؟ " " بالتأكيد " قال الزائر وأنصت خافض العينين .

" هذا الأسلوب وهذا الإعدام ، الذي تسنح لك الفرصة الآن لتتأمله بإعجاب ، لم يعد له أنصار صريحون في مستعمرتنا هذه . إني ممثله الوحيد ، وفي الوقت نفسه الممثل الوحيد لإرث القائد السابق . لم يعد بإمكاني التفكير في توسيع و تحسين هذا الأسلوب ، وأنا أستهلك كل قواي للحفاظ على ماهو موجود . في حياة القائد السابق ، كانت المستعمرة تعج بأنصاره . إني أمتلك جزئياً قوة إقناع القائد السابق ، لكن سلطته تنقصني تماماً . ونتيجة لذلك انزوى أنصاره. هناك الكثير منهم ، ولكن ليس فيهم من يعترف بذلك جهاراً .

إذا ذهبت اليوم وهو يوم إعدام ، إلى مشرب الشاي وتسمعت ، قد لا تسمع سوى اقوال ملتبسة ذات معنيين . كلهم من الأنصار، لكنهم لا يفيدونني شيئاً في عهد القائد الحالي و آرائه السائدة . و الآن اسألك : أيجوز بسبب هذا القائد و نسائه اللواتي يؤثرن فيه ، أن ينهار – وأشار إلى الجهاز – إنجاز حياة ؟ هل هذا جائز ؟ حتى من طرفِ غريبٍ يزور جزيرتنا لبضعة أيام ؟ ولكن لايجوز إضاعة الوقت الآن ، ثمة ما يهيأ ضد صلاحيتي كقاضٍ ، هناك استشارات تجري على مستوى القيادة ، لا أدعى للمشاركة فيها ، وحتى زيارتك اليوم تبدو لي كمؤشر للوضع كله . إنهم جبناء ، يرسلونك أنت ، يرسلون أجنبياً للاستطلاع . .. كم كانت حفلة الإعدام مختلفة في العهد السابق ! كان هذا الوادي يزدحم بالناس قبل التنفيذ بيوم ، الجميع كانوا يحضرون ليشاهدوا وحسب ، صباحاً باكراً كان يأتي القائد برفقة السيدات ، وكانت أبواق النفير توقظ ساحة المعسكر كلها ، كنت أعلن أن كل شيء جاهز ، والحاضرون كانوا ينظمون أنفسهم حول الجهاز – ما كان يجوز لموظف كبير أن يتغيب – كومة كراسي الخيزران هذه ليست إلا بقية بائسة من ذلك العهد . كان الجهاز يلتمع نظافة، وكنت أستخدم قطع غيار جديدة لكل إعدام تقريباً . أمام مئات الأعين – المشاهدون كانوا يقفون على رؤوس اصابعهم حتى تلك الهضاب – كان القائد بنفسه هو مَن يضع المحكوم تحت

المسلفة . وما يجوز اليوم لجندي عادي القيام به ، كان آنذاك عملي أنا ، رئيس المحكمة ، وكان يشرفني . ثم تبدأ عملية الإعدام . ما كان لأي صوت ناشزأن يزعج عمل الجهاز . كثيرون كانوا عندئذ يتوقفون عن المراقبة ، بل يستلقون على الرمال بعيون مغمضة ، فالكل يعرف أن العدالة تأخذ مجراها الآن . وفي السكون ما كان يُسمع سوى تنهيدات المحكوم العميقة من خلال حشوة اللباد . والآن ماعاد بمقدور الجهاز أن يعتصر من المحكوم تنهيدة قوية لا تستطيع الحشوة أن تخنقها . ولكن في ذلك العهد كانت الإبر الكاتبة تقطر سائلاً كاوياً ، لم يعد استخدامه مسموحاً به اليوم ... حسناً، ثم نصل إلى الساعة السادسة ! كان يستحيل تلبية رغبات الجميع بالمشاهدة من قرب . لكن القائد بإدراكه الواسع كان يأمر بتلبية رغبات الأطفال بالدرجة الأولى ، و أنا بحكم مهنتي كان يجوز لي البقاء هنا دائماً ، وغالباً ما كنت أقرفص عند الآلة ، وعلى ذراعي طفلان من جهة اليمين و طفلان من جهة اليسار. كم كنا جميعنا نتقبل تعبير التجلي من الوجه المعذّ ب ، وكم كنا نُعرِّض وجوهنا لهذه العدالة التي تم تحقيقها أخيراً ، والتي كانت تذ وي في اللحظات نفسها ! يالها من ايام يا رفيقي ! " يبدو أن الضابط قد نسي مَن هو الواقف قبالته ، فعانق الزائر وألقى رأسه على كتفه . كان الزائر في غاية الإحراج ، فشخَص بنظره بعيداً وبنفاد صبر . كان الجندي قد انتهى من عملية التنظيف و أخذ يسكب من صحيفةٍ عصيدةَ الرز في الطاس . والمحكوم، الذي ارتاح من الإقياء تماماً على ما يبدو، ما أن رأى العصيدة حتى بدأ يمد لسانه نحوها . أبعده الجندي عدة مرات عن الطاس ، لأن العصيدة مخصصة لوقت لاحق ، و لكن لم يكن لائقاً إطلاقاً من طرف الجندي أن يغرف بيديه القذرتين من العصيدة ويأكل أمام المحكوم الشره .

تمالك الضابط نفسه بسرعة وقال :" لم أبغِ تحريك مشاعرك ، أنا أعرف أن من المستحيل جعل تلك الأيام مفهومة اليوم . والجهاز على كل حال مازال يعمل ويعطي عن نفسه انطباعاً كافياً ، حتى وإن بقي وحيداً في هذا الوادي . والجثة ما زالت تسقط كالعادة ، بحركة طيران ناعمة وغير مفهومة في الحفرة ، حتى وإن لم يعد يحيط بها المئات كالذباب قديماً . فقد اضطررنا حينذاك لبناء درابزين متين حول الحفرة ، لكنه اقتُلع منذ فترة ."

أراد الزائر ألا يبقى وجهاً لوجه مع الضابط ، فأخذ ينظر حوله بلا هدف . ظن الضابط أنه يتأمل الوادي القفر ، ولذلك أمسك بيديه ودار حوله ليلتقط اتجاه نظراته و سأله :" أتلاحظ العار ؟ "

لكن الزائر سكت . ولبرهة وجيزة تركه الضابط ، الذي وقف ينظر إلى الأرض صامتاً ، بساقين متباعدتين و يديه على خاصرتيه ، ثم ابتسم للزائر مشجعاً وقال :" بالأمس كنت قريباً منك ، عندما دعاك القائد . لقد سمعت الدعوة . أنا أعرف القائد ، وفهمت مباشرة غرض القائد منها . رغم اتساع سلطته لدرجة تسمح له بالتدخل ضدي ، فإنه مازال لايجرؤ على ذلك ، لكنه سيلجأ إلى تعريضي لحكم أجنبي عالي المقام . لقد حسب حسابه جيداً ؛ هذا هو يومك الثاني في الجزيرة ، وأنت لا تعرف القائد السابق ولا دائرة أفكاره ، ثم إنك أسير آراء أوروبية ، وقد تكون من حيث المبدأ عدواً لعقوبة الإعدام بصورة عامة ولهذا النوع من الإعدام الآلي بصورة خاصة ، وفوق ذلك أنت ترى كم يكون الإعدام محزناً دون مشاركة جماهيرية ، وبآلة معطوبة جزئياً – إذا أخذنا هذا كله بعين الاعتبار (هكذا يفكر القائد) أليس من المحتمل جداً أن لا تُقِر أسلوبي القضائي ؟ وإذا ارتأيت أن لا تُقِره ، فإنك (مازلتُ أتحدث بلسان القائد) لن تسكتَ على ذلك ، لأنك تثق بالتأكيد بقناعاتك المجرّبة مراراً . لكنك اطلعت على خصوصيات غير عادية لشعوب كثيرة ، وتعلمت أن تحترمها ، لذلك فإنك غالباً لن تبدي رايك بصراحة تامة في اسلوبي القضائي ، كما قد تفعل ذلك في وطنك . غير أن القائد ليس بحاجة إلى ذلك . فتنويهٌ عابرٌ أو مجرد كلمة غير حذرة ، تكفيه . لا ضرورة

لأن تتطابق مع قناعاتك ، إذا لبت رغبته ولو ظاهرياً . أنا متأكد من أنه سيستجوبك بمكر شديد . وستتحلق النساء من حوله و ترهفن السمع . أنت ستقول تقريباً < عندنا يختلف الأسلوب القضائي > أو< عندنا يُستجوب المتهم قبل النطق بالحكم > او<عندنا توجد عقوبات أخرى غيرالإعدام > أو < لم يمارَس التعذيب عندنا إلا في العصر الوسيط > . هذه كلها ملاحظات تتناسب صحتها مع بداهتها بالنسبة إليك ، ملاحظات بريئة لا تلمس أسلوبي القضائي . ولكن كيف سيستوعبها القائد ؟ إني أراه ، هذا القائد الطيب ، وهو يدفع الكرسي عنه جانباً ويهرع إلى الشرفة فوراً ، أرى سيداته وهن يندفعن وراءه ، أسمع صوته – السيدات يسمينه قصف الرعد - ، وهاهو الآن يقول :< هناك باحث كبير من أوروبا في مهمة لفحص أساليب المحاكمات في جميع البلاد ، صرح للتو بأن أسلوبنا المتبع وفق العرف القديم غير إنساني . بعد سماع هذا الحكم من شخصية بهذا المقام، لم يعد ممكناً بالنسبة لي طبعاً الصبر على هذا الأسلوب هنا . واعتباراً من هذا اليوم آمر – إلى ما هنالك .> أنت تريد أن تتدخل ، لأنك لم تقل هذا الذي أعلَنه ، أنت لم تصف أسلوبي باللاإنساني ، بل على العكس ، وفقاً لإدراكك المعرفي القديم تجده الأكثر إنسانية و الأكثر لياقة بالإنسان ، ثم إنك معجب بهذه الوسيلة الآلية للعقاب – ولكن الوقت فات ، فلا تذهب إطلاقاً إلى الشرفة الغاصة بالسيدات ، أنت تريد لفت الانتباه إليك ، تريد ان تصيح ، لكن يد سيدة ما تغلق فمك – وأنا وإنجاز القائد السابق نكون قد ضعنا ."

حاول الزائر أن يكتم ابتسامة . على هذه الدرجة من السهولة إذن كانت المهمة ، التي اعتبرها في غاية الصعوبة . قال متهرباً :" أنت تبالغ في تأثيري ، لقد قرأ القائد كتب التوصية المتعلقة بمهمتي وبات يعرف أني لست خبيراً في أساليب المحاكمات . ولو بدا لي أن أدلي برأي ، فسيكون رأياً شخصياً ، لا تفوق اهميته رأي اي إنسان ، وأقل أهمية بكثيرعلى كل حال من رأي القائد ، الَذي يتمتع في مستعمرة العقاب هذه ، على حد علمي ، بحقوق واسعة جداً . فإذا كان رأيه بأسلوبك محدداً تماماً ، حسبما تظن ، فأخشى عندها أن تكون نهاية هذا الأسلوب قد دنت ، دونما حاجة إلى مساعدتي المتواضعة ."

هل فهمها الضابط ياترى ؟ لا، لم يفهمها بعد . هز رأسه بحيوية ، التفت سريعاً نحو المحكوم و الجندي ، اللذين انكمشا معاً و تخليا عن العصيدة ، اقترب من الزائر جداً ، نظر إليه ، لا إلى وجهه ، بل إلى نقطة ما في سترته وقال بصوت أكثر خفوتاً مما سبق :" أنت لا تعرف القائد ، إنك بالنسبة إليه ، بل إلينا كلنا – اسمح لي بهذا التعبير – شخص حميد ، إن تأثيرك ، صدقني ، لا يقيّم بثمن . أنا كنت سعيداً عندما سمعت أنك ستحضر عملية الإعدام لوحدك . فهذا الترتيب من جانب القائد ، أنا المقصود به ، إلا أنني سوف أكسبك إلى صفي . لقد أنصتّ لشروحاتي بمعزل عن أية همسات مغرضة أو نظرات مستخِفة - مثلما يحدث عند حضور جماعة كبيرة للإعدام ، فلا يمكنك تجنبها – و شاهدتَ الجهاز، وأنت على وشك أن تراقب عملية الإعدام . إن رأيك مصاغ وثابت لاشك ، وإذا كانت هناك بعض النقاط غيرالمحسومة أو الملتبسة ، فإن مشاهدة الإعدام ستزيلها . والآن أتوجه إليك برجاء : هلا ساعدتني في وجه القائد ! "

لم يتركه الزائر يكمل ، بل قال بصوت مرتفع :" وكيف يمكنني ذلك ؟ إنه مستحيل تماماً . ليس بوسعي أن أفيدك ولا أن أضرك ."

" بل بوسعك " قال الضابط . ورأى الزائرُ بشيء من الخشية أن الضابط قد كوّر قبضتيه . " بل بوسعك ." كرر الضابط بإلحاح أشد . " لدي خطة ، يجب أن تنجح . . أنت تظن أن نفوذك لايكفي . أما أنا فأعرف أنه يكفي . ولكن لنفترض أنك محق ، أفليس من الضروري حفاظاً على الطريقة ، أن نحاول كل شيء، وربما حتى ما لا يكفي ؟ اسمع خطتي إذن . المهم بالدرجة الأولى لتنفيذها ، هو أن لا تدلي برأيك في

طريقتي اليوم في المستعمرة ، ما أمكن . فإذا لم تُسأل عنه بشكل مباشر، لايجوز لك أن تصرح به بأي حال من الأحوال ، لكن ما قد تقوله يجب أن يكون مبتسراً وغير محدد . على المرء هناك أن يلاحظ ، أنه يصعب عليك الحديث في الموضوع ، أنك ساخط ، أنك إذا اضطررت للكلام بصراحة ، قد تنفجر في لعنات و شتائم . أنا لا أطالبك بان تكذب ، مطلقاً ، عليك فحسب أن تجيب باختصار ، مثلاً :< نعم ، حضرت الإعدام > أو <نعم ، سمعت كل الشروحات > هذا فقط ، لا أكثر . بالنسبة للسخط ، الذي يُفترض أن يلاحظوه عليك ، له ما يكفي من المسببات ، و لكن ليس بالضرورة بالمعنى الذي يريده القائد . وهو بطبيعة الحال سيسيء فهم القصد ، و يؤوله حسبما يريده ، وخطتي مبنية على ذلك . غداً سينعقد اجتماع في القيادة برئاسة القائد ، سيكون موسّعاً يضم جميع موظفي المراتب العليا في الإدارة . وقد عرف القائد طبعاً ، كيف يحّول مثل هذه الاجتماعات إلى استعراضات ، فقد امر ببناء رواقٍ يغص دائماً بالمتفرجين . أنا مجبر على الحضور لكن الأمر يقرفني . والآن ، مؤكد أنك ستُدعى غالباً لحضور هذا الاجتماع . إذا تصرفت اليوم حسب خطتي فستتحول الدعوة إلى رجاء حار بإلحاح . وإذا لسبب مجهول ما ، لم توجه إليك الدعوة ، فعليك طبعاً أن تطلبها ، وحصولك عليها سيكون بدهياً . فاجلس غداً إذن في مقصورة القائد مع سيداته . وهو سيتأكد من وجودك عدة مرات برفع نظره نحو المقصورة . بعد طرح مواضيع متنوعة وسخيفة وبلا معنى للتداول – معدة خصيصاً للمستمعين ، وتتعلق غالباً بمنشآت المرفأ وعلى نحو مكرر ! – سيصل الحديث ايضاً إلى أسلوب المحاكمات . وإذا لم يُطرح من جانب القائد ، أو إذا لم يحدث هذا بسرعة ، فسأهتم أنا بالأمر في الوقت المناسب . سأقف وأقدم تقريراً عن عملية إعدام اليوم . باختصار شديد ، سأعلن عنها وحسب . لم تجر العادة في هذه الاجتماعات على تقديم تقرير من هذا القبيل ، لكنني سافعلها . سيشكرني القائد كعادته دائماً بابتسامة ودّية ، لكنه عندها لن يستطيع أن يضبط نفسه ، إذ إنه سينتهز الفرصة السانحة. سيقول :< استمعنا للتو لتقرير عن عملية الإعدام > أو ما يشبه ذلك ، ويتابع :< وأحب أن أضيف إلى هذا التقرير فقط ، أن عملية الإعدام هذه تحديداً قد حضرها الباحث الكبير، الذي كما تعرفون قد شرّف مستعمرتنا بزيارة استثنائية . كما أن اجتماعنا اليوم قد اكتسب بحضوره أهمية فوق العادة . أفلا نريد بهذه المناسبة أن نسال الباحث الكبير عن رأيه بعملية الإعدام المنفذة وفق العادة المتبعة قديماً ، وعن أسلوب المحاكمة الذي يسبقها ؟ > بطبيعة الحال سيأتي التصفيق من جميع الجهات ، والموافقة العامة ، وأنا سأكون اعلاهم صوتاً . سيقوم القائد بانحناءة في اتجاهك و سيقول :< إذن ، باسم الجميع أطرح السؤال .> وعندها تتقدم أنت من درابزين المقصورة وتضع يديك عليه ، وإلا لأمسكت السيدات بيديك ليلعبن بأصابعك . عندها تأتي أخيراً كلمتك. لا أدري كيف ساتحمل مرور الساعات حتى تلك اللحظة . لا تضع لنفسك أية حدود في كلامك ، فلتكن الحقيقة صاخبة ، إنحنِ على الدرابزين و صِحْ بأعلى صوتك ، نعم ، أسمِع القائد رأيك ، رأيك الذي لايتزعزع . لكنك قد لا تبغي ذلك ، فهذا لا يتلاءم مع شخصيتك . في وطنك يتصرف الإنسان بشكل مختلف في حالات كهذه ، وهذا أيضاً صحيح ، وهو كافٍ تماماً ، لاتنهض من كرسيك ، قل بعض الكلمات وحسب ، إهمسها همساً ، بحيث لايسمعها إلا الموظفين الجالسين تحتك ، وهذا يكفي ، لا تتحدث عن غياب المشاركة عن عملية الإعدام ، ولا عن الترس الزاعق ، لا تذكرالحزام الممزق ولا اللباد المقرف ، لا حاجة بك لذلك ، هذا كله أتكفل به بنفسي . و صدقني إن لن تؤدي خطبتي إلى جعله يغادر القاعة ، فإنها ستجعله يركع على ركبتيه ليقدم اعترافه :< أيها القائد القديم ، إني أنحني لك خضوعاً . > -- هذه هي خطتي ، هلا ساعدتني في تنفيذها ؟ طبعاً تريد ، بل أكثر، يجب عليك مساعدتي ." وأمسك الضابط بساعدي الزائر وحدق في وجهه لاهثاً . وكان قد رفع صوته بالجمل الأخيرة لدرجة أن الجندي والمحكوم قد انتبها ، رغم عدم فهمهما أي شيء ، لكنهما توقفا عن الأكل ونظرا إلى الزائر وهما يلوكان .

كان الجواب الذي توجب على الزائر تقديمه للضابط صامداً لم يتزعزع منذ البداية ، لقد مر الزائر في حياته بتجارب لا تحصى ، بحيث لن تهزه هذه . إنه في واقع الأمر رجل شريف ولا يخاف شيئاً . ومع ذلك فقد تردد لحظة الآن وهو ينظر إلى الجندي و المحكوم . و أخيراً قال ما توجب عليه أن يقول :" لا " . رمش الضابط بعينيه عدة مرات ، ولكنه لم يرفع نظره عنه . " أتريد توضيحاً ؟ " سأله الزائر . أومأ الضابط برأسه صامتاً . " أنا أعارض هذا الأسلوب ، من قبل ان تُسِر لي بثقة – وهذه الثقة لن أسيء استخدامها طبعاً ، مهما كانت الظروف – كنتُ قد فكرت فيما إذا كان يجوز لي الاعتراض على هذا الأسلوب ، وفيما إذا كان لمعارضتي ابسط الأمل في النجاح . كان جلياً بالنسبة لي ، إلى مَن سأتوجه باعتراضي ، إلى القائد طبعاً . وقد أوضحت أنت لي هذه الناحية أكثر ، ولكن دون ان يكون ذلك هو السبب في تثبيت قراري طبعاً ، بل بالعكس ، فقناعتك الصادقة أثّرت فيّ ، لكنها لايمكن أن تغير من موقفي .

ظل الضابط صامتاً ، استدار نحو الجهاز ، امسك إحدى المواسير النحاسية ثم رفع نظره ، مائلاً إلى الوراء قليلاً ، نحو الرسام ، وكأنه يفحص ما إذا كان كل شيء على ما يرام . بدا ان الجندي و المحكوم قد تصادقا ، فالمحكوم رغم الصعوبة الناتجة من ثبات وضعه في الأحزمة المشدودة ، كان يقوم ببعض الإشارات للجندي ، فينحني هذا إليه ليسمع ما يهمسه له ثم يهز برأسه موافقاً .

لحق الزائر بالضابط و قال:" أنت لا تعرف بعد ، ما أريد ان أفعله . صحيح أني سأقول رأيي للقائد بشأن الطريقة ، ولكن ليس في اجتماع ، بل وجهاً لوجه ، ثم إني لن أبقى هنا طويلاً ليحسبوا حسابي في حضور أي اجتماع . سأغادر صباح الغد ، أو سأنتقل إلى السفينة على الأقل حتى إبحارها ."

لم يظهر على وجه الضابط ما يوحي بأنه كان ينصت ، إذ قال محدثاً نفسه :" الطريقة لم تقنعك إذن ." و ابتسم ابتسامة شيخٍ من سخافة ولد ، محتفظاً وراء ابتسامته بتفكيره الحقيقي . " آن الأوان إذن " قال أخيراً ونظر إلى الزائر فجأة بعينين مضيئتين تشيان بطلب ما أو بنداء ما للمشاركة . فسأله الزائر قلقاً :" ماالذي آن أوانه ؟ " لكنه لم يتلق أي جواب .

" أنت حر طليق ، " خاطب الضابط المحكوم بلغته . لكن المحكوم لم يصدق في بادىء الأمر . فكرر الضابط :" قلت ، أنت حر" . لأول مرة تعود الحياة حقاً إلى وجه المحكوم . أهي حقيقة ، أم إحدى نزوات الضابط العابرة ؟ هل توصل الزائر الأجنبي إلى تحقيق العفو عنه ؟ ما الأمر؟ هكذا أخذ وجهه يتساءل ، ولكن ليس طويلاً ، فمهما كان الأمر ، هو يريد ، إذا أجيز ذلك ، أن يكون حراً حقاً ، فأخذ يرج جسمه بقدر ما تسمح به المسلفة .

" ستمزق احزمتي " ، صاح به الضابط ، " إهدأ ! سنفكها لك ." وبدأ مع الجندي بعد إشارة منه بفك القيود . أخذ المحكوم يضحك لنفسه ضحكاً خافتاً دون أية كلمة ، ويلتفت بوجهه تارة نحو الضابط وتارة أخرى نحو الجندي ، ولم ينس الزائر .

" اسحبه إلى الخارج ، " أمر الضابط الجندي . فبسبب المسلفة ، كان لابد من توخي الحذر ، إذ إن المحكوم نتيجة نفاد صبره ، أصيب في ظهره ببعض الجروح البسيطة .

منذ تلك اللحظة لم يعد الضابط يهتم بشأن المحكوم ، بل ذهب إلى الزائر وهو يسحب الحافظة الجلدية الصغيرة من جيبه . قلّب الأوراق إلى أن وجد ضالته ، فأخرجها وأراها للزائر وقال :" إقرأ ،" فأجاب الزائر :" لا أستطيع ، قلت لك سابقاً أني لست قادراً على قراءة هذه الأوراق ." " ولكن دقق النظر في هذه

الورقة ،" قال الضابط و وقف إلى جانب الزائر كي يقرأ معه . وعندما لم يؤدِ هذا إلى الفائدة المرجوة ، أخذ يُسيّرُ خنصره فوق الورقة - من مسافة عالية ، وكأن الورقة لايجوز أن تُمس مطلقاً – ليسهّل بذلك القراءة على الزائر، الذي بذل جهده فعلاً ، كي يرضي الضابط كحد أدنى ، لكنه لم يستطع على الإطلاق . عندها أخذ الضابط يُهجّي الكتابة حرفاً حرفاً ، ثم قرأها ثانية قراءة متصلة :" كن منصفاً ! تقول العبارة ، الآن صار بإمكانك قراءتها ، أليس كذلك ؟ " انحنى الزائر مقترباً من الورقة جداً ، لدرجة أن الضابط قد أبعدها خشية حدوث مساس . صحيح أن الزائر لم يعلّق عندها بشيء ، ولكن بات جلياً أنه لم يتمكن من قراءة أي شيء . فكرر الضابط :" كن منصفاً ! تقول العبارة " ، فقال الزائر :" محتمل ، أظن أن هذا هو المكتوب هنا." " حسناً " قال الضابط و هو شبه راضٍ و تسلق السلم حاملاً الورقة ، أدخلها مفرودة في الرسام بعناية فائقة ، ثم عدّل ترتيب الترس المسنن على نحو كامل ، حسبما بدا ، إذْ كان الجهد مضنياً له ، لاسيما وأنه كان ينظم عمل عجلات مسننة صغيرة . كان راس الضابط يغيب أحياناً بشكل كامل في داخل الرسام . إلى هذه الدرجة من الدقة كان لابد من فحص وضعيات المسننات .

تابع الزائر من مكانه تحت ، هذا العمل دون شرود ، حتى تيبست رقبته و آلمته عيناه من شدة سطوع نور الشمس في السماء . أما الجندي و المحكوم فقد كانا منشغلين واحدهما مع الآخر. كان الجندي قد انتشل بحربة بندقيته قميص و بنطال المحكوم اللذين كانا في قعر الحفرة . كان القميص بالغ الاتساخ ، فأخذ المحكوم يغسله في دلو الماء . وبعد أن لبس القميص والبنطال انفجر الجندي والمحكوم معاً ضاحكين بصخب ، لأن كلا قطعتي الثياب كانتا ممزقتين من الخلف . ربما ظن المحكوم أن من واجبه تسلية الجندي ، فأخذ يدور حول نفسه وفي شكل دائرة أمام الجندي ، الذي قرفص ضاحكاً وهو يضرب على ركبته بيده . لكنهما على أية حال كانا مضطرين لمراعاة وجود السيدين .

عندما انتهى الضابط اخيراً من عمله فوق ، ألقى مبتسماً نظرة متفحصة على كل شيء ، و أغلق هذه المرة غطاء الرسام ، الذي كان مفتوحاً طوال الوقت ، ثم نزل عن السلم ، نظر في الحفرة ثم إلى المحكوم، ولاحظ راضياً أن هذا قد استعاد ثيابه منها ، ثم ذهب إلى الدلو ليغسل يديه . انتبه متأخراً إلى الوسخ المقزز فيه ، شعر بالحزن لعدم تمكنه من غسل يديه ، فاستعاض عن الماء بالرمل خاضعاً للضرورة . نهض من ثم وبدأ يفك أزرار بزته الرسمية ، فانتبه عندها إلى المنديلين النسائيين اللذين كان قد دسهما بين رقبته و ياقة السترة ، فسحبهما قائلاً للمحكوم :" إليك بمنديليك " ورماهما له ، وقال للزائر موضحاً :" هدايا من السيدات ."

على الرغم من السرعة الجلية في خلعه بزته الرسمية و الاستمرار في خلع كل ما تبقى ، فقد تعامل الضابط مع كل قطعة على حدة بعناية كبيرة ، حتى أنه داعب باصابعه الأهداب الفضية التي تزين كتفي سترته ورتبها . لكنّ ما لم ينسجم تماماً مع هذه العناية ، هو أنه ، حالما ينتهي من معالجة قطعة حتى يرميها إلى الحفرة فوراً ، وبحركة استياء . وكان آخر ما تبقى له هو الشيش و حمالته . سحب الشيش من غمده وكسره ثم حمل كل شيء : قطعتي الشيش والغمد والحمالة ورماهم بعنف إلى الحفرة ، بحيث قرقع الحديد في قاعها . وهاهو يقف الآن عارياً تماماً . عض الزائر على شفته ولم ينبس بكلمة . كان مدركاً ما سيجري ، لكنه لا يملك أي حق في منع الضابط عن اي شيء . فإذا كان الأسلوب القضائي الذي تولع به الضابط على وشك الزوال حقاً – ربما نتيجة لوجود الزائر، الذي شعر الضابط من طرفه بالتزام ما تجاهه ، فإن سلوك الضابط الآن صحيح تماماً ؛ وما كان الزائر ليتصرف بشكل مختلف .
في بداية الأمر لم يفهم الجندي و المحكوم اي شيء ، حتى أنهما لم يتابعا ما جرى بأعينهما ، فقد كان

المحكوم بالغ السرور لاستعادته المنديلين لكن سروره لم يدم طويلاً ، إذ خطفهما منه الجندي بحركة سريعة غير متوقعة . وهاهو المحكوم يحاول ثانية سحبهما من تحت حزام الجندي الذي دسهما هناك و الذي كان متيقظاً ، فاخذا يتنازعان بما يشبه المزاح . ولم ينتبها فعلياً إلا عندما بات الضابط عارياً تماماً ، ولا سيما المحكوم الذي بدا وكأنه قد أُخِذ بفكرة انقلاب كبير . فما جرى له يجري الان للضابط ، ويُحتمل أن تتطور الأمورإلى الحد الأقصى . ويُرجح أن الزائر الأجنبي هو الذي أمر بذلك . هناك انتقام إذن . فمن دون أن يعاني بنفسه حتى النهاية ، هناك مَن ينتقم له حتى النهاية . ظهرت على وجهه ضحكة صامتة عريضة ولم تعد تفارقه .

أما الضابط فقد التفت نحو الجهاز . لو كان واضحاً في وقت أبكر أنه قد فهم الجهاز جيداً ، لشعر أحدهم الآن بالذهول من أسلوب تعاطيه معه وطاعته له . إذ ما كاد يقترب من ذراع المسلفة حتى تحرك عدة مرات صعوداً و هبوطاً إلى أن اتخذت المسلفة الوضعية الصحيحة لاستقباله ؛ ولما أمسك بطرف السرير أخذ يهتز ارتعاشاً ، كما اقتربت حشوة اللباد من فمه . كان جلياً على وجه الضابط أنه في الواقع يرفضها ، لكن تردده لم يطل سوى لحظات أذعن بعدها وفتح فمه لها . كان كل شيء جاهزاً ، سوى الأحزمة التي مازالت مدلاة على الأطراف ، لكنها كانت على ما يبدو غير ضرورية ، فالضابط لن يُربط بهذه الأحزمة . عندها انتبه المحكوم إلى الأحزمة ، وحسب رأيه لا يكتمل تنفيذ الإعدام دون ربط الأحزمة ، فاشار إلى الجندي بحماسة ، وهرعا لربطها للضابط الذي كان قد مدّ قدمه لكي يدفع ذراع تشغيل الرسّام ، وعندما شاهد الاثنين قادمين سحب قدمه وتركهما ليربطا الأحزمة حول أطرافه . لكنه الآن لم يعد يطول الذراع ، و المحكوم و الجندي لن يتمكنا من العثور عليها ، فيما الزائر مصرٌ على عدم التدخل في شيء . لم يكن هذا ضرورياً ، فما أن رُبطت الأحزمة حتى بدأت الآلة تشتغل ؛ فارتجف السرير ورقصت الإبر على الجلد وحوّمت المسلفة صعوداً وهبوطاً .كان الزائر قد حدّق في المنظر برهة طويلة قبل أن يتذكر أن ثمة دولاباً مسنناً في الرسام يُفترض به أن يصدر صوتاً كالزعيق ؛ لكن كل شيء كان هادئاً ساكناً .

نظراً لسكون عمل الجهاز فقد غاب كلياً عن مركز الاهتمام . نظر الزائر إلى الجندي و المحكوم . كان الأخير الأكثرحيوية ، فكل ما يتعلق بالجهاز كان يثير اهتمامه ، فينحني تارة نحو الأسفل ، ويتطاول تارة أخرى نحو الأعلى ، وهو طوال الوقت يمد سبابته ليؤشر للجندي على شيء ما . كان الزائر محرجاً ، إذ كان مصمماً على البقاء هنا حتى النهاية ، إلا أنه ما كان ليحتمل منظر الإثنين فترة أطول ." اذهبا إلى البيت" قال لهما الزائر. ربما كان الجندي ميالاً لذلك ، غير أن المحكوم أحس بهذا الأمر و كأنه عقوبة فعلية. فتوسل إلى الزائر مبتهلاً بيدين متشابكتين ليتركه هنا ، ولما أراد الزائر رفض طلبه هازاً برأسه ، ركع المحكوم على ركبتيه . أدرك الزائر ان الأوامر هنا لا فائدة منها ، فأراد التوجه نحوهما لطردهما بنفسه ، وعندها سمع صوتاً من الرسام فرفع راسه نحوه . هل سيكون الترس المسنن مصدر إزعاج ؟ لكن الأمر كان شيئاً آخر ، لاحظ أن غطاء الرسام يرتفع ببطء إلى أن انقلب كلياً . ظهرت منه أسنان ترس و أخذت ترتفع إلى أن ظهر الترس كله ، وكأن قوة ما هائلة ، تضغط على جسم صندوق الرسام ، بحيث لم يعد هناك مكان لهذا الترس في الداخل . دار الترس نحو حافة الرسام وهوى نحو الأسفل ، رفسَ منتصباً حفنة رمل ثم ارتمى منبطحاً . إلا أن غيره لحق به من فوق ، وتبعته عدة مسننات كبيرة وصغيرة ، يصعب التمييز بينها ، ولاقى الجميع المصير نفسه . وكان يتبادر إلى الذهن طوال الوقت أن لابد للرسام الآن من أن يكون قد فرغ ، فإذا بالمزيد يظهرفي مجموعات صغيرة ، ترتفع ثم تهوي لتصطدم بالأرض وتترامى منبطحة . وبسبب ما يجري نسي المحكوم أمر الزائر كلياً ، إذ فتنته التروس المسننة ، وكان طوال الوقت

يريد أن يلمس أحدها وهو يدفع الجندي لمساعدته ، غير أنه سحب يده مرعوباً لسقوط ترس آخر، اخافه تدحرجه في بدايته .

كان الزائر على النقيض قلقاً جداً ، فالجهاز على ما يبدو يتحول إلى حطام ، و حركته الهادئة كانت خداعاً . انتابه شعور بضرورة أن يعتني بالضابط بنفسه ، ما دام هذا غير قادر على ذلك . ولكن بينما شَغَل تساقطُ التروس المسننة كل انتباهه، فاته مراقبة بقية الجهاز ، ولكن الآن بعد أن تخلى آخر ترس مسنن عن الرسام وانحنى الزائر فوق المسلفة ، صُدم بمفاجأة جديدة أشد سوءاً : لم تعد المسلفة تكتب ، بل تخز وحسب ، والسرير لم يعد يقلِّب الجسم ، بل يرفعه راجفاً لتنغرز الإبر فيه .أراد الزائر التدخل ، وإن أمكن ذلك ، فلكي يوقف الجهاز كله ، فهذا لم يعد تعذيباً أراده الضابط لمحكوميه ، بل إنه قتل مباشر. مد يديه ، وعندها رفعت المسلفة نفسها وتحركت جانباً ، حاملة الجسم الملتصق بإبرها ، كما تفعل عادة ولكن بعد مرور 12 ساعة. سال الدم بمئات المسيلات غير ممزوج بالماء ، فحتى ميازيب الماء أخفقت هذه المرة . وهاهو آخر شيء يُخفِق الآن ايضاً ، إذ لم ينفصل الجسم عن الإبر الطويلة ، والدم يفرغ منه ، لكنه معلق فوق الحفرة دون أن يسقط . أرادت المسلفة الرجوع إلى وضعها السابق ، ولكن ، وكأنها لاحظت من نفسها أنها لم تتحرر بعد من الثقل ، فبقيت فوق الحفرة . " هيا ساعداني ! " صاح الزائر باتجاه الجندي و المحكوم ، وأمسك بنفسه قدمي الضابط . اراد أن يضغط جسمه عليهما ، فيما يمسك الآخران رأس الضابط من الجهة الأخرى ، وبهذا يمكن تحريره ببطء من الإبر. لكن الآخرَين لم يحسما امريهما للقدوم ، حتى أن المحكوم أعطاه ظهره. اضطر الزائرإلى الذهاب إليهما و جرهما بالقوة إلى رأس الضابط . وأثناء ذلك رأى رغماً عنه وجه الجثة. كان كما لو أنه حي يرزق ؛ لم يكتشف فيه الزائر اية علامة تدل على الخلاص الموعود ؛ فما وجده جميع الآخرين في الجهاز لم يجده الضابط . كانت شفتاه مضغوطتين على بعضهما بشدة و العينان مفتوحتين وفيهما تعبير الحياة . كانت النظرة هادئة و متيقنة ، وقد اخترقت الشوكة الحديدية الكبرى منتصف الجبهة .

* * * * * * * * * *

عندما وصل الزائر، ومن ورائه الجندي و المحكوم، إلى بيوت المستعمرة ، أشار الجندي إلى أحدها و قال :" هذا هو مشرب الشاي.في الطابق الأرضي من بناء كانت هناك قاعة عميقة ومنخفضة كالمغاور، جدرانها و سقفها ممتلئة بآثار الدخان ، وضلعها الموازي للشارع مفتوح بأكمله عليه . وعلى الرغم من أن بناء مشرب الشاي كان يختلف قليلاً عن بقية أبنية المستعمرة ، التي بدت كلها خربة ومهملة ، عدا بناء قصر القيادة ، فقد ترك لدى الزائر انطباعاً و كأنه بناء تاريخي ، ما جعله يحس بسلطة العهود السابقة . اقترب منه ومن خلفه مرافقاه ومشى بين الطاولات الشاغرة الموزعة على الرصيف خارج مشرب الشاي ، وتنشق الهواء الرطب المحمل بالعفونة ، الآتي من الداخل . " العجوز مدفون هنا ، " قال الجندي و أضاف :" الكاهن لم يسمح بدفنه في المقبرة . احتار الناس طويلاً بشأن مكان لدفنه ، و أخيراً دفنوه هنا . لا شك في أن الضابط لم يذكر ذلك أمامك ، فهذا الموضوع كان أشد ما يخجله . وقد حاول عدة مرات أثناء الليل أن يخرج العجوز من هذا القبر، إلا أنه كان يُطرد كل مرة ." " وأين القبر ؟" سأل الزائر، الذي بدا أنه لم يصدق الجندي . فتقدمه الجندي والمحكوم فوراً و أشارا بيدين ممدودتين إلى المكان الذي يُفترض أن يوجد القبر فيه . قادا الزائر حتى الجدار الخلفي ، حيث كان بعض الزبائن يجلسون إلى بعض الطاولات . ربما كانوا من عمال المرفأ رجال أقوياء بلحى قصيرة كاملة سوادها لمّاع . كان الجميع بلا سترات و قمصانهم ممزقة ، كانوا فقراء مذلون . عندما اقترب الزائر، نهض بعضهم ووقفوا بوجوههم نحو الجدار . " إنه

أجنبي " دار الهمس حول الزائر، " يريد رؤية القبر ". فسحبوا إحدى الطاولات جانباً ، فظهرت تحتها حقاً شاهدة قبر .

كان حجر الشاهدة بسيطاً ، واطئاً ، بما يكفي لإخفائه تحت طاولة . كانت على الحجر كتابة بحروف صغيرة جداً ، اضطرت الزائر للركوع كي يتمكن من قراءتها ، تقول : <هنا يرقد القائد القديم . أنصاره المجهولو الهوية الآن ، حفروا قبره ووضعوا عليه الشاهدة . هناك نبوءة بأن القائد بعد مضي عدد محدد من السنين سوف يُبعث من جديد و سيقود انصاره من هذه الدار لاحتلال المستعمرة ثانية . فآمِنوا و انتظِروا ! > بعد أن قراها الزائر و نهض رأى الرجال من حوله واقفين مبتسمين ، و كأنهم قرؤوا الكتابة معه ووجدوها مضحكة ، و يطالبونه بتبني موقفهم . تظاهر الزائر بأنه لم يلحظ ذلك ، وزع عليهم بعض القطع النقدية ، انتظر إلى أن عادت الطاولة لتغطي القبر، ثم غادر المقهى متوجهاً نحو المرفأ .

في المقهى وجد الجندي و المحكوم بعض المعارف الذين استبْقوهما ، لكنهما اضطرا من ثم لانتزاع نفسيهما من بينهم ، للحاق بالمسافر الذي كان قد بلغ منتصف الدرج الطويل المؤدي إلى القوارب . ربما كانا يبغيان إجبار المسافر في آخر لحظة على أخذهما معه . و بينما كان المسافر يتفاوض مع صاحب قاربٍ لنقله إلى السفينة ، أسرع الإثنان نازلين الدرج ، صامتين ، إذ لم يتجرآا على الصياح . ولكن عندما بلغا الرصيف كان المسافر في القارب ، والنوتي يفك الحبل لينطلق . كان بمقدورهما القفز إلى القارب ، إلا أن المسافر رفع حبل مرساة ثقيل مملوء بالعقد من أرض القارب مهدداً إياهما به ، فمنعهما بذلك من القفز إليه .

ترجمة: د. نبيل الحفار

Original: Franz Kafka „In der Strafkolonie“ 1919

© كل حقوق الطبع محفوظه لمعهد جوتة وليست للاستخدام الشخصي أو للأغراض التجارية.